د.مباركية عيسى
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المقياس: قضايا نقدية
التخصص: أدب حديث ومعاصر ـ ماستر
المستوى: ثانية ماستر، السداسي 3

المحاضرة رقم 07

عنوان المحاضرة: إشكالية المصطلح النقدي

إن الناظر في المسائل النقدية التي تؤلف الإشكال الراهن، يجد أن مسألة المصطلح من أهم القضايا التي أصبحت مثار اهتمام النقاد المعاصرين، ذلك أن المصطلح النقدي يشكل الأساس الذي يقوم عليه الخطاب النقدي، شأنه في ذلك شأن باقي المصطلحات في شتى فروع المعرفة، ولم تصبح المسألة المصطلحية في النقد الأدبي مسألة إشكالية إلا بسبب اتساع رقعة المعارف التي أدت إلى انبثاق مصطلحات جديدة، ولما كان النقد العربي الحديث مدفوعا لمسايرة ما يستجد من مصطلحات فإن خطاه قد لا تترسخ، ذلك لأن جل المصطلحات الوافدة للحقل النقدي العربي هي مصطلحات أفرزتها مرجعيات معرفية وثقافية تختلف عن الأطر المعرفية والثقافية في الوطن العربي، فحينما "ينقل الحداثيون المصطلح النقدي في عزلة عن خلفيته الفكرية والفلسفية فإنه يفرغ من دلالته ويفقد القدرة على أن يحدد المعنى، فإذا تم نقله بعوالقه الفلسفية أدى إلى الفوضى والاضطراب، إذ إن القيم المعرفية القادمة من المصطلح تختلف بل تتعارض أحيانا مع القيم التي طورها الفكر العربي الحديث"

فالمتتبع للقضايا الحقيقية ذات العلاقة بإشكالية المصطلح النقدي يجد أن هذا الأخير بمثابة همزة وصل بين النقاد والمتلقين المحدثين، ويلح على الاضطراب الذي مسه نتيجة التلاقح – المصطلح الوافد- الذي أدى إلى الغموض والضبابية وصعوبة استخدامه عند الباحثين، بالإضافة إلى تشابك المصطلح الحديث واختلاط المفاهيم فيه وعد تحديدها وعزلها عن سياقها، وبالتالي أحدث فوضى مصطلحية أدت إلى تأزم المصطلح مما أوحت بواقع غير مرض ومرد ذلك إلى:

1 ــ تعدد تسميات المصطلح الواحد: يستعمل الناقد العربي تسميات مختلفة لمصطلح واحد، التي تعد من أهم المشاكل التي يعاني منها النقدي بوجه خاص، وتكشف عناوين عدد من هذه الدراسات النقدية بوضوح استخدام هذه الظاهرة، ولعل من بعض هذه الأسباب التي أسهمت في نشوء هذه الظاهرة "غياب التحديد الدقيق والواضح للمصطلح النقدي، وغياب الإطار النظري المصاحب والثوابت المعرفية المطلقة وكذلك انعدام الأسس اللغوية العامة لصياغة المصطلح النقدي، وكذا فقدان الآلية الصحيحة في نقل المصطلحات من اللغات الأخرى".

ويمكن رصد العديد من المصطلحات النقدية التي استعملت بتسميات عديدة للمفهوم الواحد في الدراسات النقدية العربية الحديثة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

ــ مصطلح الشعرية poétique الذي تعددت تسمياته منها: (الشاعرية، علم الشعر، فن الشعر، الأدبية، صناعة الأدب، علم الأدب، البيوطيقا).

ــ السيميولوجية، السيميائية، السيميوطيقية، السيماطيقي، علم الدلالات، أنظمة العلامات، السيميوتيكية، السيميوتيك، السيميائيات، علم الإشارة، العلامة ، التحليل العلاماتي، علم الرموز، الدلائلية، السيمياء... وكلها ترجمات لمصطلح الغربي (semiology).

ــ التفكيكية، التقويضية، التشريحية، التفكيك، التشريح، التقويض، وكلها ترجمات للمصطلح الغربي(deconstruction) .
ــ البنيوية، البنائية، البنية، الهيكلية، البناء، وكلها ترجمات للمصطلح الغربي (structuralism) أو (structure).
ــ الأسلوبية، علم الأسلوب، الأسلوبيات، وهي ترجمة للمصطلح الغربي (stylisme) أو (stilistique).
ــ الحداثة، الحداثية، التحديث، الحداثوية، وهي ترجمات للمصطلح الأنجليزي (modernity) والمصطلح الفرنسي (modernite).
إذ نلاحظ أن هناك خلط في تعدد مترادفات المصطلح الواحد، التي تدل على عدم استقرار وغياب المعايير النقدية الثابتة التي لها كل الصلاحية على توحيده، فهذا لا يعود إلى الناقد بحد ذاته أو إلى فلسفة محددة بل يعود في الأصل إلى الاختلاف في الأنساق الثقافية بالإضافة أن لكل لغة من اللغات خصوصيتها التي تتميز بها، وطبيعة التحولات الاجتماعية لأن الباحث " يفاجأ بأن معظم هذه المدلولات غربية الأصل وأنها ترتبط بحركات الفكر الأوروبي وتسير حسب تطوره العام".
2 ــ استخدام المصطلح الواحد للدلالة على عدة مفاهيم: وهي ظاهرة منتشرة بكثرة في الدراسات النقدية الحديثة أدت إلى فوضى في الآراء النقدية وتنافر فيها، لأن الناقد "يغرف من هنا ومن هناك، وتتزاحم المصطلحات الروسية والأنجليزية والفرنسية والألمانية من غير هدف الإظهار والاطلاع" ، وهذا لا يخدم العملية الإبداعية النقدية ولا يؤدي إلى تطورها، بل يحدث تغييرا سلبيا في مدلولات المصطلح النقدي ومفاهيمه.
ويمكن الوقوف على مصطلح الأسلوبية والشعرية لبيان هذه التعددية في اشتراك المصطلح الواحد.
ــ مصطلح الأسلوبية: الذي عرف عند النقاد القدماء بالأسلوب، وهو عند "عبد القاهر الجرجاني" " الضرب من النظم والطريقة فيه"، ولكن إذا أبحرنا في تسمية المصطلح الحديث من خلال الدراسات الحديثة نجدها تغيرت نوعا ما، حيث أصبحت الأسلوبية أو العلم الأسلوب الحديث، وهناك من يرى بأن الأسلوبية باعتبارها منهجا مستمدا من المناهج اللغوية، لهذا السبب يعرفها بعضهم فيقول عنها أنها" مزيج من فروع اللغة العام" ، ولقد استعمل مصطلح الأسلوبية في الدراسات النقدية الحديثة للدلالة على عدة أشياء منها الأسلوبية هي "البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب" ، وأنها "وصف النص الأدبي حسب مناهج مأخوذة من علم اللغة"، وهي "طريقة نوعية لدراسة لغة الكلام عند الفرد المتوسط عندما تظهر الوقائع التعبيرية محددة وشخصية بقيمها العاطفية جنبا إلى جنب مع أفكار هذا الفرد الذي يضع اللغة ويطورها"، وهي "نوع من الحوار الدائم بين القارئ والكاتب من خلال نص معين" .
فكل هذه التعريفات والمفاهيم تصب بما يعرف بـــ "الأسلوبية" فهي طريقة فردية خاصة بأسلوب أو دراسة النقد الأسلوبي كما أنها "الدراسة الموضوعية المنظمة للغة الأثر الأدبي وأصواتها ومفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وينطوي هذا العلم على الربط المنطقي بين ملاحظات الناقد ونمط من الملائمة الموضوعية".

ــ مصطلح الشعرية: استخدم في الدراسات النقدية الحديثة للدلالة على عدة أشياء منها: أنها تسعى إلى : "معرفة القوانين العام التي تنظم ولادة كل عمل وهي تبحث في هذه القوانين داخل الأدب ذاته"، وهي "علم الأسلوب الشعري وهدفها البحث عن الأساس الموضوعي الذي يستند إليه تصنيف نص في هذه الخانة أو تلك"، كما أنها: "إقامة حد فاصل بين الشعر واللاشعر" و "الانحراف عن التعبير "وأنها "الانزياح الذي هو الشرط الضروري لل الشعر، وأنها طريقة الوعي الذي يكون الشعر الأداة المفضلة فيها".

3 ــ ضبابية منبع المصطلح النقدي:وهي من المشكلات التي يعانيها المصطلح النقدي قبل عملية الترجمة، وهي ناتجة عن التضخم النقدي الذي حدث في أوروبا في المنتصف الثاني من القرن العشرين، إذ برز الاضطراب واضحا في الأصوات الدالة في الحقل الدلالي الواحد مثل: القصة (story)، والقصة القصيرة (short story)، والرواية القصيرة والرواية (novel).

كما اعتبر مصطلح القصة في العربية مقابلا لثلاثة مصطلحات انجليزية هي: (story)، (fable)، (tale)، وهي ظاهرة منتشرة بين المصطلحات النقدية، وتعد سمة دالة على غموض المصطلح وقلقه وعدم استقراره، وتعود هذه الضبابية إلى آلية استنباط المصطلح واستخراجه من جذوره الغربية، وهي معضلة أصيب بها المصطلح النقدي إلى تعارض دلالاته واشتباكها في ميدان مغلق لا يفضي إلى نتيجة مما جعله يعاني أزمة حقيقية في ممارساته وطرائق استخدامه، ولعل ذلك كله يعود إلى انبهار النقاد والدارسين العرب بالمصطلح النقدي الغربي، ونقلهم له بتجرد واضح من خصائصه التي اكتسبها من البيئة الثقافية التي ولد ونشأ وتشكل فيه، وعدم معرفة الأسباب التي دفعت إلى وضعه وعد قراءة الأدب الغربي مباشرة، والاكتفاء بالنقل عن الكتب والمقالات المترجمة، مما أدى إلى عملية نقل غير واعية لخصوصيته وخصوصية الواقع النقدي العربي الذي نقل إليه ودرجة تطوره. ولعل عد الوضوح الدارج لدلالة المصطلح النقدي يعود أصلا إلى غموضه في منبعه الأصلي، ووضعه في سياق غامض اعتمد فيه الباحث على مهاراته وإبداعاته الذاتية والعشوائية، مما أفقده سمة الوضوح. وخير مثال على ذلك المصطلحات النقدية الشائعة في الدراسات النقدية العربية من مثل: النسق والبنية والشكلية والموضوعية،وهي مصطلحات لم يتفق الكثير من الباحثين على تحديد ماهيتها، لأن لفظة البنية أو الشكلية أو الموضوعية ألفاظ تسيطر على المناخ النقدي في العالم رغم عدم وضوحها وتداخل معانيها كما يقول الناقد الفرنسي المعاصر "جان ريشار" .

4 ــ تابعية النقد العربي للنقد الغربي: وهي من أخطر مشكلات المصطلح، بل هي الأساس فيها، لاعتماد النقد العربي في الكثير من موضوعاته على المصادر والمراجع الغربية في تلقي المصطلح النقدي، وتشكيل مفهومه وأدواته النقدية والإجرائية، ومما زاد الأمر تعقيدا اختلاف النقاد العرب أنفسهم في تحديد مفهوم المصطلح لاختلاف ثقافاتهم ومنهجهم النقدي. ففرض ذلك على النقد العربي أن يعيش حالة من الاغتراب والانقطاع عن جذوره، لأن أغلبه مستمدة من جذور غربية النشأة، "وتتبلور خطورة هذه التبعية النقدية في النهل من المصطلحات الغربية بطريقة عشوائية غير منظمة مما أدى إلى خلط واضح في مفاهيم المصطلحات وتضاربها وغموض دلالاتها"

حيث نلاحظ بأن الدارسين كلما ظهر مصطلح في الساحة النقدية نجدهم يتهافتون عليه ترجمة وتعريبا دون معاينته وفحصه، مما يزيد الأمر تعقيدا صدمة الدارس بالمتلقي الذي يجد صعوبة في فهم دلالة المصطلح المقتبس وبالتالي عدم فهمه للرؤية التي تجسدها النصوص للمصطلح الذي احتواه، مثل: النقد التوليدي، البنيوي التكويني، النقد التفكيكي، النقد الموضوعاتي، البنيوية اللغوية، البنيوية النحوية، البنيوية الدلالية وغيرها.

إن طبيعة المصطلح الذي وجد في ثقافة معينة لها خصوصية موروثة وهوية لغة يمنحه حرمته التي تحفظ للنص سياقه المعرفي، وهذا يتطلب من الناقل دربة و ممارسة وموهبة ذاتية ومعرفة منهجية واسعة وذوقا مدربا إزاء اختيار المصطلح ضمن "منظومة مرجعية التراث ثم الاشتقاق العام فالقياس ثم الترجمة ويدنو منها التعريب ثم الاقتراض وفي النهاية يقع أمر النحت بما له وما عليه".

5 ــ غياب النظريات النقدية العربية: ساهم غياب النظريات النقدية إلى حدوث شلل في حركة تطور النقد العربي، لأنه أصبح عاجزا عن تخطي أزمات المصطلح النقدي ودراسته من خلال كل المراحل التي مر بها في مسيرته التاريخية واستنباطه من داخل النصوص، مما دفع بالنقاد لنقل المصطلحات النقدية جاهزة من نظريات الناقد الغربي بطريقة عفوية وعشوائية.

وذلك بسبب بتر الإجراءات النقدية وحصرها في عملية التلقين لا الابتكار والاعتماد على ما تزخم منها في دراسة النصوص الإبداعية العربية كسلعة جاهزة للهضم ثم إهمال إجراءات مهمة مثل: "التميز والتقدير والمفاضلة والتحليل والتغير وهي إجراءات من صلب العملية النقدية عبر تاريخها الطويل".

وكل ذلك ساهم في إلغاء محاولة ولادة نظرية نقدية عربية خالصة قادرة على استخراج المصطلحات من قلب النصوص النقدية الأدبية.

وإذا قمنا برصد حركات النظريات النقدية في بيئتنا العربية نجد أنها لم تكتمل بعد، وظهرت بعض إرهاصاتها عند الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، إلا أنها لم تتعدى المجال النظري، فلم تصل لمرحلة التطبيق الفعلي، وبالتالي تبقى هذه النظريات ضمن الإطار النظري الشكلي فيتحتم علينا العودة إلى تراثنا النقدي العربي لاستقصاء الآراء النظرية لدراسة المصطلح، وفق منهج علمي واضح المعالم.

مراجع ومصادر المحاضرة:

ــ عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة.

ــ منتهى الحراحشة: من مشكلات المصطلح النقدي.

ــ عبد الرحيم: أزمة المصطلح في النقد القصصي.

ــ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز.

ــ محمود عياد: الأسلوبية الحديثة.

ــ عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب.

ـ سلمان العطار: الأسلوبية وعلم التاريخ.

ـ جوزيف ميشال شريم: دليل الدراسات الأسلوبية.

ـ تزيفيتان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء سلامة.

ـ جون كوهين: بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري.

ـ كمال أبو ديب: في الشعرية.

ـ

.